

العنوان:	من التاريخ السلطاني الى تاريخ المهمشين: نظرات في تجديد الادوات المنهجية للمؤرخ
المصدر:	دراسة المجالات الاجتماعية المهمشة وتاريخ المغرب
الناشر:	كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن امسيك - مختبر المغرب والعوالم المغربية
المؤلف الرئيسي:	بوتشيش، إبراهيم القادري
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2011
الصفحات:	50 - 74
رقم MD:	594491
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	المهمشون، تاريخ المغرب، التاريخ الاسلامي، الشرائح الاجتماعية
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/594491

من التاريخ السلطاني إلى تاريخ المهمشين: نظرات في تجديد الأدوات المنهجية للمؤرخ

إبراهيم القادري بوتشيش(*)

مدخل

تطرح هذه الورقة بعض القضايا التي سبق أن أثرناها ضمن مشروع أكاديمي بدأ منذ ثلاثة عقود من الزمن حول مسألة الهامش والمهمش في التاريخ الإسلامي(1)، لكن بشكل يختلف في الطرح المنهجي الذي يسعى هذه المرة إلى إعادة مساءلة هذه الإشكالية وتقويمها، من خلال المزاوجة بين التصور الذي صيغت به إشكالية تاريخ المهمشين في بعض المتون المتفرقة من التراث العربي ـ الإسلامي، وما بشرت به مقولات مدرسة الحوليات الفرنسية ورواد التاريخ

---

* . كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس.

1. بدأ اهتمامنا بهذا المشروع ـ تاريخ المهمشين ـ منذ أواخر السبعينيات ضمن مشروع أكاديمي جامعي تبناه المفكر العربي محمود إسماعيل من خلال إشرافه على مجموعة من الأطاريح التي أسفرت عن صدور عدد من المؤلفات لكل من كاتب هذه السطور والأساتذة الباحثين أحمد الطاهري وعبد الإله بنمليح وحسين خالد وغيرهم من الباحثين الذين لا تسمح الإحالة بذكر كل أسمائهم. لكن أول بحث نشرته في هذا المنحى صدر تحت عنوان "تاريخ المستضعفين في التاريخ الإسلامي: نموذج من الأندلس"، نشر بمجلة كلية الآداب بمكناس، مكناسة، العدد الأول، سنة 1986. ولا يزال هذا المشروع الأكاديمي متواصلا مع جملة من تلامذتي الذين نشروا مؤلفات وأبحاث تصب في هذا الاتجاه.

الجديد من صيحات منهجية جديدة شكلت - بحق - "فتحا" كبيرا في مجال التاريخ الهامشي، ناهيك عن التصورات المنهجية التي صاغتها بعض الدراسات الاجتماعية الأمريكية حول المجالات الهامشية.

يتميز الخطاب التاريخي - قديمه وحديثه - بهاجس القلق المنهجي الذي ساور بعض المؤرخين، وحسبنا ما أثير حول موقع الهامش والمهمش في دائرة التاريخ من خلافات منهجية وردت في الإسطوغرافيا العربية الوسيطية، وهي خلافات تنطق بوجود رؤى متباينة بخصوص التعامل مع الشرائح الاجتماعية المهمشة في التاريخ؛ ويمكن للبحث التاريخي المعاصر أن يستثمر هذه التباينات لسبك أسئلة جديدة، يستفيد من أجوبتها لاستثمار أدوات منهجية تجعل تاريخ المهمشين تحت الضوء.

من هذا المنظور فإن مداخلتي ستتأسس من شقين:

وضع الأصبع على الخلل الذي دمغ المنهج التاريخي العربي الوسيط بسبب موقفه من الشرائح الاجتماعية المهمشة.

الأدوات المنهجية المتاحة لانتشال تاريخ المهمشين من النسيان، وطي المسافة الفاصلة بين التاريخ السلطاني وتاريخ من لا صوت لهم.

قبل التعرض بالتحليل لهذين العنصرين، أعتقد أنه من الضروري تحديد مفهوم "الهامشي" الذي أتبناه في هذا البحث[2]، والذي يقر المتخصصون وضمنهم جان كلود سميث (J. C. Smith)[3] بصعوبة تحديده بسبب تعدد مستوياته المتراوحة بين مستوى التموقع الشكلي داخل المجتمع، وبين مستويي الإقصاء الكلي من المجتمع أو الاندماج فيه، وإن كان يرجح في موضع آخر أن

2. أضفت هذه الفقرة حول مفهوم المهمش إلى العرض الأصلي للبحث نظرا لما دار في الجلسات المخصصة للنقاش، والتي أظهرت أن هناك اختلافا بين الباحثين المشاركين في اليومين الدراسيين المخصصين لهذا الموضوع حول مفهوم الجماعات المهمشة. ولم أميز بين مصطلحي الهامشي والمهمش لأن كلاهما يعتبر مهمشا في الكتابة التاريخية.

3. تاريخ الهامشيين، ضمن كتاب **التاريخ الجديد**، تنسيق جاك لووف، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، بيروت 2007، ص 441.

مفهوم الهامشي يتأسس على التاريخ الذي ينطلق من "المركز" أي التاريخ الذي لا يحتسب إلا الأدوار التي قامت بها نخب السلطة والثروة والنخبة العالمة، وهو مفهوم يؤثث منظوره على أساس أن المركز يشكل مصدر التحكم في رسم معايير الأخطاء والانحرافات الأخلاقية وغيرها من النظم القيمية التي تبنى عليها منطلقات المؤرخ ومواقفه من الهامشيين[4]. لذلك حق له القول إنه "لا يمكن انطلاقا من المركز أن ننظر إلى مجتمع بأكمله، ولا أن نكتب تاريخه بطريقة أخرى إلا بإعادة الخطاب الإجماعي للماسكين بالسلطة... والتساؤل عن المنبوذين والصامتين في التاريخ التقليدي"[5].

صحيح أننا نشاطر جان كلود سميث الرأي في أن قراءة التاريخ انطلاقا من المركز تفرز تاريخا مبتورا يتمحور حول السلطة، ويقصي تاريخ الفئات الصامتة. إلا أننا لا نقتصر على هذا المفهوم في شكله العائم لسبب بسيط، وهو أن بعض الحالات في التاريخ سجلت تهميش حتى بعض النماذج المنتمية إلى خانة النفوذ والجاه والسلطة، بناء على قاعدة أن التاريخ يكتبه المنتصرون[6]. لذلك نعتقد أن مفهوم المهمش يمكن أن يتمطط ليشمل كل "المغضوب عليهم" من جانب السلطة، سواء كانوا من تلك الفئات المنبوذة التي ظل صوتها مكتوما على حد تعبير ميشال دي سيرتو (Michel De Certeau)[7]، أو تلك التي تم تحويل صوتها مع مجيئ الغازي والمنتصر إلى صوت مبحوح طواه الزمن؛ وبكلمات أخرى فإن المفهوم الذي تتبناه هذه الورقة لا يستند على مقولة قراءة "التاريخ من الأسفل" فحسب، بل يشمل كل من أقصي من الكتابة التاريخية.

تأسيسا على هذا المفهوم، سنسعى إلى محاولة تحديد الخلل المنهجي الذي سقطت فيه الكتابة التاريخية العربية - الإسلامية الوسيطية، والمتمثل في إلقاء المهمشين في زوايا النسيان من جهة، وتبني "الحلول" المنهجية التي تمكن من

4. نفسه، ص. 437.

5. نفسه، ص. 438-439.

6. ينظر على سبيل المثال التهميش الذي طال بعض الأمراء والزعماء البربر كالأميرين البربريين كسيلة والكاهنة من جانب الإسطوغرافيا العربية.

7. De Certeau. M. "l'Absent de l'histoire". *Repères*، عن المرجع السابق، ص. 438.

اقتحام غياهب هذا الفضاء المعتم، وتحريره من هيمنة المركزية المسكونة بهاجس الرسمية، من جهة أخرى.

I. تفكيك خلل المنهج التاريخي العربي الوسيط ورصد موقفه من تاريخ المهمشين

1. تشخيص ابن خلدون لخلل المنهج التاريخي العربي من خلال انتقاده للتاريخ السلطاني وإدانته لإقصاء تاريخ المهمشين

لفهم موقف ابن خلدون من التاريخ السلطاني، لا بد من استحضار نص يشكل النموذج المهيمن في الكتابة التاريخية الوسيطية، كتبه المؤرخ ابن أبي زرع الفاسي[8] يقول فيه واصفا الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين:

"صفته: أسمر اللون نقيه، معتدل القامة، نحيف الجسم، خفيف العارضين، رقيق الصوت، أكحل العينين، أقنا الأنف، له وفرة تبلغ شحمة أذنيه، مقرون الحاجبين، جعد الشعر. وكان رحمه الله بطلا نجدا شجاعا حاسما مهابا ضابطا لملكه...". ويستمر هذا الوصف الدقيق لشخصية يوسف بن تاشفين أكثر من صفحتين!

إن الشكل السردي الذي قدمه هذا المؤرخ في وصف الحاكم المرابطي - وهو نموذج للشكل السردي الذي سار على هديه معظم المؤرخين العرب - باستثناء الفرقة الناجية منهم وهم أقلية - يعكس خللا واضحا في المنهج التاريخي، ففي الوقت الذي وصف الخليفة من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، مع ذكر الجزئيات الدقيقة من ملامح وجهه، لم يتعامل بنفس السخاء مع شرائح المجتمع المهمشة من فلاحين ورعاة وحرفيين، بل لم ينبس بكلمة واحدة حول المشردين والمنبوذين والمتسولين.

ولا شك أن ابن خلدون فطن إلى هذا القصور الذي اعترى المنهج التاريخي العربي، فأعاد طرح السؤال المنهجي حول جدوى الكتابة التاريخية

8. روض القرطاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص 156.

وموقع المهمشين فيها، وهو ما يتجلى من خلال تمريره إشارتين متشبعتين بحمولات دلالية وردتا ضمن نصوص المقدمة، محدثا بذلك هزة عنيفة في مسار التاريخ السلطاني المألوف والمتواتر:

- تتمثل الإشارة الأولى في انتقاده اللاذع لمنهجية التاريخ السلطاني المتحكمة في إنتاجات أقرانه من المؤرخين، والتي أفرزت "ذهنية بلاطية"[9] متفننة في سرد تاريخ الحاكم. لقد عاب عليهم إطنابهم في وصفه ووصف حاشيته وشارات ملكه، والإغراق في "الثرثرة" الإنشائية من خلال ذكر تفاصيل الجزئيات عمّا كتب في نقش خاتمه ووصف ثيابه، لذلك وصفهم "بالتقليد والغفلة" لأنهم أغفلوا ذكر من أسماهم "بصانعي وسائل المعاش"، أي ما نسميهم نحن بالقطاعات المهمشة[10].

أما الإشارة الثانية فتمكن في إحالته على المؤرخ المسعودي كرمز ونموذج للمؤرخ المحترف الذي يمتلك ناصية المنهجية التاريخية السليمة، خاصة في كتابه مروج الذهب الذي شرح فيه ـ حسب كلمات ابن خلدون نفسه ـ "أحوال الأمم (...) وذكر نحلهم وعوائدهم، ووصف الجبال والبحار وفرق شعوب العرب والعجم فصار إماما للمؤرخين"[11]، بمعنى أن ابن خلدون يحيل في تصوره المنهجي النموذجي على التاريخ الكلي الذي عبر عنه بـ "أحوال الأمم"، أي ما تسميه مدرسة الأنال (Annales) بـ "تاريخ كل الناس" حسب تعبير جاك لوكوف[12]. كما يشيد في هذا التصور النموذجي أيضا بأهمية دراسة العوائد والطباع والسلوكات عند الأمم، كذا دراسة مجال البحر والجبل وتأثيراتها في العوائد، محيلا بذلك على ما تسميه المدرسة السالفة الذكر بالمنهج البيئوي

9. استعرنا هذا التعبير من إحسان عباس الذي وظفه في مجال شعر المدح، ونرى أنه ينطبق أيضا على مجال التاريخ الرسمي "المادح". انظر: **فن الشعر**، دار الثقافة، بيروت، 1975، ص 163.

10. **المقدمة**، بيروت، 1979، ص 26.

11. نفسه، ص 27.

12. **التاريخ الجديد**... م.س، ص 121.

والأنتروبولوجي الذي يهتم بدراسة أنماط السلوك والعادات والأعراف في ضوء المعطيات الجغرافية والبيئية.

يعد "بيان" ابن خلدون - الداعي إلى تأسيس منهج جديد لدراسة الشعوب والأمم - أول صيحة منهجية فطنت إلى أهمية دراسة تاريخ المهمشين. ومقابل ذلك فإنه انتقد بشدة تهاونات مدرسة التاريخ السلطاني، واعتبرها مسؤولة عن تغييب قوى فاعلة، وعدم استحضار ذهنيات مجتمعية، وعادات وتقاليد يمكن من خلالها رؤية التاريخ رؤية سليمة، وهو ما يعكس وقوفه على خلل طال منهج التاريخ العربي- الإسلامي، يكمن سببه الأساسي في طمس تاريخ الفئات المهمشة.

على محك هذا الطرح الخلدوني سنحاول تفسير المنزلق المنهجي الذي سقطت فيه الكتابة التاريخية العربية الوسيطية.

مكونات منهج التهميش في الكتابة التاريخية العربية في العصر الوسيط

إذا استثنينا بعض الإنتاجات التي كانت رائدة في استحضار فئات المهمشين والمنبوذين في التاريخ العربي ولو في صيغة تندرية كما يعكس ذلك نموذج ابن الجوزي (ت سنة 597 هـ) الذي صنف كتابا حول" أخبار الحمقى والمغفلين"، وأبو القاسم بن محمد بن حبيب النيسابوري (ت سنة 406هـ) الذي ألف بدوره مصنفا حول "عقلاء المجانين"، وكتابات الجاحظ باعتبارها إنتاجا تاريخيا أيضا، وما صنف في أحوال العشق والحب[13]، فضلا عن إشارات ابن خلدون حول المتسولين والسحرة والكنزيين وجملة من صانعي وسائل المعاش، فإن معظم الإنتاج التاريخي العربي نحا نحو تهميش هذه الفئات المهمشة أصلا.

فكيف نفسر منهجية التهميش المهيمنة في الكتابة التاريخية العربية الوسيطية؟

---

13. انظر التفاصيل في: - شيماء الصراف، "العشق وكتب العشق عند العرب"، مجلة: *Etudes Orientales*, n° 5 - 6, 1990.

تتشكل هذه المنهجية من مجموعة من المكونات التي تفسر ما تعرضت له فئات العامة من تهميش في المتون التاريخية، ويمكن صياغتها على النحو التالي:

1. الطمس والتعتيم المتعمد:

إن السعي لطمس أخبار فئات العامة، قاعدة استمدت حضورها في المنهج التاريخي العربي من خلال بعدين أساسين:

أولهما يمكن اختزاله في المكون الثقافي للمؤرخ الذي ظل ينظر إلى التاريخ على أنه مجموعة ترسبات متتالية للأحداث والأشخاص والدول والعائلات الوجيهة، وأن دور المؤرخ يقتصر على الجمع بينها عن طريق عملية "كولاج" (collage)، دون أن يكلف نفسه عناء إدراك عمق تلك الترسبات، ودون مستوى قراءة فاحصة ممتدة عبر مساحات معرفية متنوعة، ومساءلة لتلك الأحداث بغية اكتشاف علائقيتها وتفاعلاتها الجدلية التي تنتظمها لتشكل منها ظاهرات شمولية، وبذلك نظر إلى التاريخ نصف نظرة بدل نظرة كاملة، مؤسسا بذلك قاعدة للتاريخ المنظور إليه من الأعلى، تاركا ضبابية مفرطة في تفاعله مع الأسفل، وهذا ما يفسر إقصاءه للجماعات الهامشية في كل ما كتب، باستثناء تلميحات باهتة وإشارات محتشمة وردت بكيفية عفوية لم تستطع ضوابط الرقابة الذاتية أن تحول دون تسربها إلى إنتاجاته.

أما البعد الثاني فهو بعد سياسي/اجتماعي، يكمن في عدم قدرة المؤرخ العربي على الانفلات من سياج الإيديولوجية الرسمية للدولة التي تحتضنه، ومن ثم فان كتابته عكست كل ألوان إيديولوجية الحاكم، فطبيعة الدولة العربية - الإسلامية من حيث هي جهاز سياسي عسكري فكري مجبول على الاحتوائية والشمولية، جعلت الحاكم يتدخل في الإنتاج التاريخي، ويملي شروطه على المؤرخ، وهذا ما يفسر النعوت القدحية التي وصم بها هذا الأخير الجماعات الهامشية كالرعاع والسفلة والأوباش والهمج، وغير ذلك من المصطلحات التي

تفوح برائحة الحقد والعداء السافر للمؤرخ لهم من الأسفل[14]. وبما أن العلاقة بين الحاكم والمحكوم ظلت عبر مسار التاريخ الإسلامي علاقات يشوبها التوتر، ونظرا لأن الجماعات الهامشية ظلت خلال معظم تاريخها تنأى تحت وطأة الأنظمة الاستبدادية، فإنها تبنت في سبيل تحررها إيديولوجيات مناهضة للإيديولوجية المهيمنة، فتلونت بإيديولوجيات مضادة ذات مسوحات خوارجية أو مهدوية أو اعتزالية أو تصوفية، لذلك فان المؤرخ لم يتجرأ عن مغادرة موقعه الراسخ في عدائه للطرف المحكوم، وحاول فرض دسائسه على العقل الجمعي وتجريم كل حركة رفعت شعار التمرد والخروج عن سياج الطاعة، فجعل كل خارج عن إيديولوجية الحاكم من تلك الفئة في خانة المنحرفين الذين يصبح تهميشهم من "مسؤولياته". بل إن حتى الجماعات الهامشية الأخرى التي لم تكن تشكل إزعاجا سياسيا للحاكم، لم يكن لها صوت مسموع في إنتاجات المؤرخين، لأن البعد الاجتماعي غاب عن مخيال المؤرخ العربي الذي كان يختزل صورة المجتمع في "أهل السيف" و"أهل القلم"، وما دونهما فغثاء لا يستحق الاهتمام[15]، باعتبارهم مجرد سوقة ورعاع يعيشون في عالم له أبعاده الفكرية والاجتماعية التي تتدنى عن مستوى عالم النخبة، ومن ثم تم طي صفحتهم ليصبحوا نسيا منسيا[16]. دون إغفال أن الخلفية النفعية للمؤرخ جعل بواعث إنتاجه خادمة لمكاسبه الشخصية، ووسيلة لتحقيق الثروة والجاه بواسطة الهبات الملوكية السخية[17].

---

14. انظر على سبيل المثال: الحضرمي، **الإشارة في تدبير الإمارة**، تحقيق سامي النشار، دار الثقافة، البيضاء، 1981، ص 78. وانظر ما قاله المقري عن عامة قرطبة في **نفح الطيب**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، 1966، ج1 ص 462، وما ذكره العمري عن عامة فاس: **مسالك الأبصار**، مخطوط خزانة دار الكتب بالقاهرة، معارف عامة رقم 559، ورقة 105 ظهر.

15. محمود إسماعيل، **المهمشون في التاريخ الإسلامي**، دار رؤية للنشر، القاهرة، 2004، ص. 14.

16. إبراهيم القادري بوتشيش، العوام في مراكش خلال القرن السادس الهجري: الإسلام السري في المغرب العربي، سينا للنشر، القاهرة، 1995، ص 176، 177.

17. عز الدين السلاوي، **السلطة والمجتمع والأدب، المدح في عصري الموحدين والمرينيين نموذجا**، منشورات كلية الآداب بمكناس، سلسلة دراسات وأبحاث رقم 23، 2007، ص 120. ==

2. الرقابة والاستيعاب

من المتعارف عليه أن التدوين التاريخي العربي بدأ خلال العصر العباسي. وقد سعت السلطة العباسية إبان ذروة ازدهارها إلى سن سياسة توافقية بين الفرق الإسلامية حفاظا على استقرار الدولة وبناء أمنها الداخلي، وذلك عن طريق امتصاص أحزاب المعارضة وإشراكها في السلطة، ومنحها حصتها في استغلال الثروة والنفوذ، حفاظا على الوحدة، وتجنبا للسقوط في فخ في التفتت والتشرذم الذي لا يخدم مصالحها الاقتصادية. وبذلك أصبحت الوحدة هاجسا مهما في بنية عقل المؤرخ الذي كان يسعى بدوره إلى المحافظة على مصالحه التابعة لمصلحة الحاكم نفسه، لذلك لم يتردد في تبني مبدأ تماسك وحدة الأمة التي ظلت المنظومة المرجعية ومفتاح الرقابة الدينية التي تتحكم في كتاباته، وهي رقابة اكتسبت قانونيتها من خلال استنادها على الخلفية الشرعية الدينية ومن القيم المجتمعية، لذلك كان يرى في كل حركة مناوئة للسلطة - والتي غالبا ما كانت تأتي من جانب الفئات المهمشة - مسّا بقداسة مبدأ وحدة الأمة، لذلك سعى إلى فرض رقابة حول نصوص الرواة المعتمدين وأحكامهم، من خلال تبني معيار خاص لقبول تلك النصوص، وهو عدم التطرف في الآراء، واتصاف الروايات المعتمدة بالاعتدال[18]، لذلك كان يتعمد انتقاء النصوص الصادرة من أفواه "رجال الاعتدال" "الذين لايسبون ولايلعنون ولايفسقون ولايكفرون"[19]، أي كل الذين ليس لهم مواقف متطرفة مضادة للتيار الحاكم. وبما أن الشرائح المهمشة في المجتمعات الإسلامية كانت تنتفض بين الفينة والأخرى احتجاجا على السلطة، أو طلبا لتحسين مستواها المعيشي، فإن المؤرخ العربي حشرها ضمن "الذين يفسقون ويكفرون"، أو الذين

==139. وقد عالج المؤلف الفكرة الواردة أعلاه ضمن نطاق شعر المدح مع إيراد بعض النماذج من المؤرخين المغاربة في العصر المريني كابن أبي زرع في روض القرطاس والذخيرة السنية، انظر الإحالة رقم 254 من الفصل الثاني.

18. وجيه كوثراني، "بعض خصائص الكتابة التاريخية عند العرب"، **مجلة الفكر العربي**، عدد 2، سنة 1978، ص 79.

19. عبد الله العروي، **العرب والفكر التاريخي**، بيروت، 1973، ص 88.

يندرجون بشكل أو بآخر في عداد المغضوب عليهم. فكانت هذه الصيغة من المراقبة والضبط واستبعاد ما له صلة "بسخط الجماهير" تتحكم في كتاباته، بل أصبح هذا النمط من الخطاب التاريخي يشكل "سلطة" على المخاطب كتابة وفكرا.

3. الارتداد نحو التفسير الغيبي:

تستهدف هذه الصيغة الانتقائية في اعتماد روايات رجال الاعتدال إبعاد فكرة الصراع الاجتماعي من دائرة التاريخ، وهو ما يتولد عنه ارتداد المؤرخ نحو الإيديولوجية الدينية التي تفسر التاريخ بقوى غيبية. فتعلل أحداثه بمقولة العناية الإلهية، مستبعدة العقلانية والفعل البشري وإبداعات جمهور الناس - وهم السواد الأعظم من المهمشين - من حركية التاريخ[20]. لذلك غالبا ما تم تغييب هؤلاء تحت الغطاء الديني باعتبارهم يشكلون حسب مقاييس المؤرخ العربي فئة خارجة عن الشرع، أو جماعات شاردة تحلق خارج سرب المألوف الاجتماعي/الديني، مما يستوجب الحظر والمنع من دخول دائرة التاريخ.

4. الإعراض والتناسي:

نستعير هذا التعبير الذي نحته المفكر عبد الله العروي[21] للتعبير عن شكل الخيط الذي أمسك به مؤرخو المعارضة في سياق استراتيجية التوافق مع السلطة التي تستلزم تقزيم أخبار الجماعات الهامشية في مؤلفاتهم، إذ لم يخرج أحد من مؤرخي فرق المعارضة عن هذه الاستراتيجية التي تحكمت في إنتاجاتهم. وحسبنا أن كل ما بقي من تلك الإنتاجات، هو عبارة عن سير وتراجم لأعلام مذاهبهم أو مناظرات كلامية Polemic بين هذه الفرقة أو تلك، دون الغوص في المشاكل الحقيقية التي عاشها من انخرطوا في حركتهم وأعلنوا الثورات والاحتجاجات الاجتماعية باسمهم، بل اقتصر مؤرخو المعارضة على

20. نفسه، ص 59. محمود إسماعيل، **المهمشون في التاريخ الإسلامي**، ص 7.
21. عبد الله العروي، **العرب والفكر التاريخي**...، م.س، ص 94.

عرض وجهات نظرهم الكلامية التي هي في معظمها "أدبيات" بعيدة عن رسم لوحة "لرجل الشارع" وظروف فقره وآلامه. إنها استراتيجية سياسية ذكية، ولكنها ملتوية ومخادعة، أسفرت في نهاية المطاف عن طمس جزء من فعاليات السلوك البشري وتجلياته الحضارية.

5. التماهي مع الشخصية الكاريزمية:

لقد استطاع الحاكم في ظل الأنظمة الطاغية أن يفرض نفسه كشخصية كاريزمية على عقلية المؤرخ العربي الذي رأى في "سيده" تجسيدا لرمز الرجولة والبطولة والقدرة على صنع مسار التاريخ، لذلك تبنى التفسير الفرداني لوقائع التاريخ، اعتقادا منه أن الحاكم هو القوة المحركة للتاريخ، لذلك فإن كتاباته لم تبتعد قيد أنملة عن هذا التصور الذي يجعل التاريخ مجرد سجل منقبي للخلفاء "العظام". فالخليفة عند المؤرخ السني هو "ظل الله في الأرض" والشخص الوحيد القادر على صنع التاريخ. والإمام عند الشيعة، هو الذات المعصومة من الخطأ التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وهو الشخصية الوحيدة المؤهلة لقيادة الإنسانية إلى النور بعد أن هوت. أما الفئات الاجتماعية المهمشة فلا مكان لها في التاريخ، لأنها خارجة عن الإلهام البطولي. إن هذا الاحتكار الفردي للتاريخ هو ما شكل نقطة انتقاد المؤرخ الاقتصادي "سيميان "للتاريخ الأوروبي أيضا، فأشهر مقولته التي عبر عنها "بعبادة الصنم الفردي "ضمن ثلاثية الأصنام التي انبهر بها مؤرخو المدرسة التاريخية للقرن 19[22].

6. التهميش الذاتي:

إن الباحث المتفحص لعوامل التغييب التي طالت الجماعات المهمشة، يكتشف أيضا أن هذه الجماعات ذاتها تتحمل مسؤولية تحجيم دورها

22. عن: "*Méthode historique et science sociale*", *Revue de synthèse historique* (1903)
جاك لوغوف، م.س، ص. 107.

وخروجها من دائرة الضوء، إذ لم تخلف مصنفات أو كتابات يستعين بها المؤرخ المعاصر لتحليل وجهة نظرها والاطلاع على "مشروعها" المدني وتوجهاتها العامة، وهو أمر يفسر بتدني مستواها الثقافي حيث لم تحظ بنصيبها في عالم الثقافة والمعرفة. وإذا كان المفكر محمود إسماعيل قد قدم بعض الألوان من الأدب الشعبي كمقامات بديع الزمان الهمذاني وكتب الملاحم والسير الشعبية كسيرة عنترة بن شداد والسيرة الهلالية وسيرة حمزة العربي، والزجل والأمثال الشعبية كتركة مكتوبة يمكن من خلالها الوقوف على أوضاع المتسولين والشطار ورجال الفتوة[23]، وهو رأي وجيه، فإن هذه المادة - على أهميتها - لا تقدم برنامجا سياسيا واضح المعالم يمكن من خلالها الوقوف على الآراء السياسية لزعماء ثورات الهامشيين، بقدر ما تحمل طابع النقد للمجتمع والسلطة والطبقات الأرستقراطية ورد في شكل نوادر. ورغم وجود تراث شفهي يشكل ثقوبا يمكن من خلالها الإطلالة على هذه الفئات المهمشة بالمغرب، فإن هذا التراث لا يزال مشتتا في الذاكرة الجماعية، ويحتاج إلى لملمة ودراسة واستقصاء.

II. الأدوات المنهجية لكتابة تاريخ الهامش والمهمش:

ارتحالات المؤرخ في مساحات الهامش والمهمش:

لا شك أن الانتقال من التاريخ السلطاني إلى تاريخ الجماعات المهمشة يتطلب من المؤرخ تنويع الرؤية والأدوات المنهجية تبعا لتغير نوعية الشخصيات والأماكن والأزمنة، وحقول البحث ومجالاته. ويستلزم هذا الانتقال استخدام مناهج متعددة بسبب مجموعة من "الارتحالات" التي عليه أن يقوم بها، والتي يمكن تلخيصها في الآتي:

أ. ارتحال على مستوى الأشخاص المؤرخ لهم، وهو ما يعني تحول المؤرخ من دراسة رموز السلطة وعلية القوم وطبقات الأعيان، إلى دراسة التعساء والمجهولين والمجانين والشطار والمتسولين والمجرمين والبطاليين والخدم والعبيد

23. محمود إسماعيل، المهمشون في التاريخ... م.س، ص 193 ـ 196.

والبهاليل، فضلا عن الذين عصفت بهم نوائب الدهر فتحولوا من قمة الهرم الاجتماعي إلى شخصيات منبوذة وانخرطوا في عالم الغوغاء والسفلة.

ب. ارتحال على مستوى المكان: يتم ارتحال المؤرخ من أروقة البلاط وصالونات البرلمانات والمكاتب الوزارية ومجالس "الشورى"، إلى المزارع وأرصفة الطرقات والساحات العمومية والكهوف والأماكن المهجورة والزوايا والأضرحة، ومن الحواضر ودوائر العمران، إلى البوادي والقفار والجبال والأماكن المنعزلة النائية، ومن المركز نحو الهوامش.

ج. ارتحال على مستوى الجنس (Gender): يرتحل مؤرخ الفئات الهامشية من المجتمع الذكوري الذي يكون فيه الرجل محور النص ونقطة ارتكاز الحدث، ومن الوسط الذي تسود فيه قيم الرجولة والبطولة والمعارك والثورات، إلى العالم الأنثوي الذي يستقطب اهتمامات مغايرة كالجمال واللذة الجنسية وعقلية المرأة ومشاعرها.

د. ارتحال على مستوى الزمن: حيث يتم ارتحال المؤرخ من الزمن الخلافي أو الأميري أو الأسري المرتبط بالسنوات أو القرون، إلى الزمن الاجتماعي الذي تتداخل فيه أزمنة قطاعية متعددة تفرضها تغير الذهنيات والمواقف من الكوارث الطبيعية والأمراض من قبيل: زمن الخوف من الطاعون، زمن الكرامات، زمن البركة، زمن القبيلة، زمن الشريفية، زمن العبيد والإماء... إنه ارتحال من الزمن التقليدي المتجانس والمتصاعد، إلى الزمن كظاهرة اجتماعية كلية متشابكة.

ويرتحل المؤرخ مع الزمن الاجتماعي الكلي من الزمن القصير الأمد إلى الزمن الطويل الذي قد يستغرق أربعة قرون كما هو الحال في دراسة (Ladurie) التي خصصها للوقوف على تطور الحياة الاجتماعية الشاملة لفلاحي منطقة (Languedoc)[24]. ويفسر هذا التحول من المدى الزمني القصير إلى الطويل بالتبدلات البطيئة في الطبائع والسلوك والعادات التي هي من صميم اهتمامات مؤرخ المهمشين، ومن ثم يصبح مفهوم قياس الزمن ذا أبعاد جديدة

24. فوفيل، "التاريخ والأمد الطويل"، ضمن كتاب: **التاريخ الجديد**، ص. 142.

مغايرة لمقاييس التاريخ السلطاني من خلال تحديد موقف الإنسان العامي من الظواهر والمشكلات الأساسية مثل مفهوم العمل عند الرقيق: متى تحول من المفهوم القدحي إلى المفهوم الإيجابي؟ وكذلك موقف الإنسان من الموت: متى كان يتقبلها كلية، ومتى صار يتقبلها نسبيا؟. كما يرتبط الزمن الطويل بتغير الحقل التاريخي والمناهج والتقنيات كما سيأتي ذكره.

هـ. ارتحال بين المجال الشرعي والفضاء المحظور: إن التأريخ للمهمشين يلزم المؤرخ بالارتحال أحيانا من المجال الشرعي المألوف، إلى الفضاء المحرم الذي يغلق المجتمع أبوابه في وجهه، ويحظر تداوله كمجال البغاء والشذوذ الجنسي والدعارة واللواط والرشوة وشرب الخمر والسحر، وغيرها من المواضيع التي كان التاريخ السلطاني يعتبرها من الخانات المسيجة التي لا يسمح بالاقتراب منها.

و. ارتحال على المستوى الثقافي والحضاري: يبحر المؤرخ في سياق الصفة الثقافية للمؤرخ لهم من عالم النخبة العالمة، نحو عالم الأميين ليكتب عن تاريخ أناس لا يعرفون القراءة والكتابة. كما يرتحل تبعا لذلك من مجال الثقافة المكتوبة إلى الثقافة الشفهية بكل تمثلاتها. وفي ذات الوقت، نجده يرتحل من تاريخ الأكثرية إلى تاريخ الأقليات الإثنية، والطوائف الدينية التي طالها التهميش. إنه بتعبير آخر ارتحال من تاريخ الغالب إلى تاريخ المغلوب.

ز. ارتحال على مستوى حقول البحث:

في تأريخه للفئات المهمشة، يرتحل المؤرخ أيضا من مجال القرار السياسي والمعاهدات الدبلوماسية التي هي "عبارة عن واجهة يتخفى وراءها الدور الحقيقي للتاريخ"[25]، إلى مجال تحليل الآليات الذهنية المعقدة التي تروم دراسة المشاعر والسيكولوجية الجماعية، وتفاعل الإنسان مع الطبيعة ومع وسطه البيئي والسلوكي، فتطرح مواضيع جديدة من قبيل الحب والسلوك الجنسي والجنون والعواطف والسلوكات المرتبطة بالكوارث والأمراض والزلازل والمجاعات والفيضانات، والموقف من الأزمات ومن الموت ومن

25. جاك لوغوف، **التاريخ الجديد**...م. س، ص 87.

العمل، والاهتمام بمستوى الطبائع أو ما يسميه "مارسل موس" بـ "تقنيات الجسد"[26].

ويشكل هذا الحقل الجديد- حقل الذهنيات- مختبرا هاما لفحص عقليات المهمشين وسلوكاتهم، لأن دراسة الذهنيات حسب "فوفيل" - وهو من أبرز المتخصصين في هذا الميدان - هي "الجزء الدقيق والبارز من المستوى الذي تعبر فيه الانتماءات عن ذاتها في جملة من المواقف والتمثلات الجماعية"[27].

وبالمثل يصبح عالم المتخيل يشكل حقلا خصبا للكشف عن تاريخ المهمشين، وفيه أيضا يبحر المؤرخ من الواقعي إلى الغيبي، من الإنسان العادي إلى الإنسان "البدائي المتوحش"، لما يحمله المتخيل من ألوان متنوعة كالأساطير والسحر والأحلام والنبوءة، وتجليات الارتداد نحو الحياة البدائية. ويصبح ارتكاز الباحث في مثل هذه المشاهد وانعكاساتها في السلوك وكشف دلالاتها الرمزية أداة للوقوف على تاريخ المهمشين، من أجل الوصول إلى أغوار نفسية المجتمع وأحاسيسه ومشاعره، خاصة أن فضاء المتخيل يزاوج بين العالم المرئي والعالم اللامرئي. وإذا كان لكل ثقافة متخيلها ومستوياتها، فالحق أن مدرسة الحوليات ساهمت بنصيب وافر في ملء البياضات التي تسود دراسات المتخيل في الغرب الأوروبي الوسيط[28]، في حين لا تزال الحاجة ماسة إلى إنارة هذا الجانب بالنسبة للتاريخ العربي، وهو أمر ممكن جدا لأن المتخيل الجماعي يتقاطع في عدة مواضع مع الفولكلور الشعبي وطقوس الاحتفالات والحكايات الخرافية[29]، وهو حقل غني في التراث العربي، بل إنه بدأ في إفراز بعض المبادرات في الدراسات الاجتماعية- النفسية[30].

26. نفسه، ص 114 - فوفيل، "التاريخ والأمد الطويل"، م. س، ص 154.

27. فوفيل، "التاريخ و الأمد الطويل" م.س، ص 158.

28. Voir: J. Le Goff, *L'imaginaire médiéval*, Bibliothèque des historiens, Gallimard, Paris, 1985.

29. باتلاجين، "تاريخ المتخيل"، ضمن كتاب: التاريخ الجديد... م.س، ص 481.

30. ينظر كتاب: *L'homme, la femme et les relations amoureuses dans l'imaginaire arabo-musulman*, Cahier C.E.R.E.S , Série psycologie no 8 , Tunis, 1995.

نفس الملاحظة تنطبق على المواضيع البيولوجية والسوسيولوجية كقضايا التغذية واللباس والجسد أو القضايا التواصلية كاللغة، فكلها جوانب تصير من أولويات مؤرخ الفئات المهمشة. يقول "لوغوف" في هذا المعنى: "أليس لتاريخ اللباس وطريقة الأكل جاذبية أكثر من تاريخ المعارك والاجتماعات الدولية والجدل البرلماني والحملات الانتخابية التي لا تعدو أن تكون زبدا للتاريخ على حد تعبير (Paul Valery)"[31].

وعلى المستوى الاقتصادي، تتجه بوصلة المؤرخ من البحث في الإنتاج الاقتصادي، إلى دراسة الإنسان في علاقته بالآلة ووسائل العمل، ومن رصد المنتوج المادي، إلى البحث عن قيمته وموقعه من الثروات الوطنية ومستوى المعيشة وكيفية استهلاك الإنسان له، مما يشكل مادة لكتابة "تاريخ الاستهلاك" الذي يعد مؤشرا حقيقيا للوقوف على تاريخ المهمشين، فتاريخ هؤلاء لا يقرأ في ضوء الإنتاج الاقتصادي فحسب، بل يكتشف من خلال بعض الثقوب التي توفرها مؤشرات الكيف والنوع وطرق الاستهلاك والتوازنات بين الاقتصادي والديموغرافي.

تكثيف المناهج:

في القواعد المنهجية الأولية:

نظرا لأن الإنسان يصبح محور التاريخ في دراسة الجماعات الهامشية، ولأن التاريخ نفسه يكون في هذا الاتجاه علما للإنسان في شموليته، يصبح المؤرخ في حاجة إلى ارتياد مسالك منهجية لم تكن مستعملة على الأقل بالكثافة والدقة اللازمين في أبحاث التاريخ السلطاني. ويفترض هذا التوجه تحرير الكتابة التاريخية من المنهج المهيمن الذي يشد المؤرخ نحو الحاكم، حتى يتحرر من الانغلاق على الذات ويساهم في "إسقاط الجدران العازلة التي تجاوزها الزمن"[32].

31. جاك لوكوف، **التاريخ الجديد**...م. س، (تقديم الطبعة الأولى)، ص 59.

32. L. Febvre, *Combats pour l'histoire*, Paris, Armand Colin, 1953, p. 343.

وتتمثل أول نقلة منهجية في هذا الاتجاه، حسبما يبدو، في إعلان "الطلاق" مع التاريخ السردي الكرونولوجي المعتمد على الحدث السياسي، والذي هو بمثابة الهواء الذي يتنفس من خلاله التاريخ السلطاني. وقد عبر "فوفيل" عن هذا الاتجاه بقوله إن "التاريخ السردي قد مات"، وإن كان قد عاد في موضع آخر ضمن مناقشته لطروحات "بروديل" إلى القول بأن إلغاء الحدث لا يعني نهاية تاريخ الحدث، ولكنه موت مفروض في نهاية المطاف، لأن التاريخ السياسي نفسه قد فك الارتباط مع الأحداث ليطرح مشاكل لا يمكن تصور دراستها إلا من خلال الاستمرارية في الزمن[33]. ورغم أن "أن كلا من "فوفيل" و"بروديل" يعبران في هذا المعنى عن توجهات رواد التاريخ الجديد، فإن الأمر يعتبر من تحصيل الحاصل ما دامت هذه المدرسة قد جعلت تاريخ الهامشيين ضمن برنامج مشروعها الطموح.

إن الاعتماد على السرد للأحداث المدوية، هو تنكر لتاريخ المهمشين، وتعبير ساذج عن قشور التاريخ وليس اكتشافا لجوهر لبابه، ومن ثم تقتضي مهنة المؤرخ تحليل الإشكاليات الدقيقة وتتبعها في واقعها المعقد والمتداخل، فليس هناك تاريخ وقائعي جاهز ينكشف تلقائيا للمؤرخ، بل إن هذا الأخير كأي عالم يحدد "اختياراته" أمام واقع شاسع وغامض[34]. ومن خبايا هذا الواقع الغامض يصل إلى جسّ نبض الجماعات الهامشية عن طريق استجلاء مضمراته واستكشاف مغلقاته، خاصة إذا وضعنا في الحسبان أن موضوع هذه الجماعات هي موضوعات إشكالية وليست تلقائية، لا تقدمها النصوص والوثائق عن طيب خاطر، بل على المؤرخ أن يراودها مجيئا وذهابا ليقضي منها وطره في النهاية. إن منهجية قراءة الوثيقة أو النص، تفترض في هذا الحقل من تاريخ المهمشين أن لا يقرأ مضمونها حسب ما تقدمه الوثيقة نفسها، بل بما يقدمه لها المؤرخ من أسئلة نابعة من علم التاريخ وغيره من العلوم التي تتقاطع معه، بمعنى أن على هذا الأخير أن يستنطقها استنطاقا جديدا يتناسب مع ما تخبئه

33. فوفيل، "التاريخ والأمد الطويل"... م.س، ص 145، 146، 148.

34. صيغة استعملها مارك بلوخ أنظر: جاك لوغوف، **التاريخ الجديد**... م.س، ص 88.

من دلالات وإيحاءات والتواءات، ويقدم استمارة "خاصة" لاستجوابها، وهي استمارة مفعمة بالأسئلة الإشكالية المرتبطة بالفئات المهمشة تروم استشفاف الثاوي الدفين بين طيات الوثيقة وسطور النص.

والحاصل أنه لا يمكن فهم الآلية المعقدة لتاريخ المهمشين بمعزل عن هذا المنحى المنهجي، الذي يستبعد التسلسل الكرونولوجي كمحور أساسي في حركية التاريخ إلى دراسة الحدث الكلي الذي يجمع الاقتصادي والاجتماعي والفني والنفسي والأنتربولوجي[35]، مع إمكانية اختباره ضمن ما يعرف بالتاريخ المقارن.

بالإضافة إلى ذلك، ثمة اختيارات منهجية أولية يفرضها الانتقال من التاريخ السلطاني إلى تاريخ المهمشين أهمها التحول من الخاص إلى العام، من الفرد إلى الجماعة، من الاستثنائي والعرضي إلى المنتظم الثابت[36]، والاعتماد على التحليل الأفقي بدل العمودي، وهو منهج يستلزم دراسة تاريخ "كل الناس" وليس فقط تاريخ العظماء والملوك[37]، والانتقال أيضا من دراسة الظروف المحيطة بالإنسان إلى دراسة الإنسان في الظروف.

كما أن التحليل النسقي الشمولي يعد أداة منهجية أساسية لدراسة وضعية الفئات المهمشة، فالباحث ينتقل من الحدث المعزول مكانيا وزمانيا إلى تغطية شمولية لعصر برمته كما فعل بروديل[38]، عن طريق استقصاء مجموعة من الظواهر كالمناخ والخبز وطبقات السكان والمناجم والمعادن، والدخول إلى عالم البيوت وعوالم الزينة والديكور والمشاعر العاطفية، أي ما تسميه مدرسة التاريخ الجديد بأسلوب الشبكة[39].

35. جاك لوغوف، **التاريخ الجديد**... م. س، ص 102.

36. بوميان، "تاريخ البنى"، ضمن كتاب **التاريخ الجديد**... م. س، ص 207.

37. نفسه، ص 100.

38. انظر كتابه: *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Armand Colin, Paris, 1949.

39. بوميان، "تاريخ البنى"... م. س، ص 193.

وقد يكون حجم المنهج الشمولي أوسع في تصور المدارس الأمريكية، وهو ما يعكسه نموذج مدرسة جامعة شيكاغو التي تبنت مفهوم التاريخ الشامل منذ منتصف القرن الماضي، وهو مفهوم يتوخى دراسة التاريخ من خلال كونيته، مع الإصرار على عدم إغفال تاريخ العالم الإسلامي على الخصوص، ونذكر من الوجوه الكبيرة التي نحت هذا المنحى Marshall Hodgson وWilliam Mc Neill.

ب. المنهج الكمي الإحصائي والمجموعات المنسجمة:

بما أن البحث في الجماعات المهمشة يفترض استقصاء قضايا مرتبطة بها كالتغذية والإنتاج الزراعي والأمراض والمجاعات، فإن على المؤرخ أن يوظف المنهج الكمي الإحصائي لاستخراج جداول ورسوم بيانية ومنحنيات تفسر تأثير التغيرات الاقتصادية على وضعية الفئات المهمشة، إذ لم يعد بوسع الباحث في هذا الحقل المعرفي أن يكتفي بعبارات انطباعية مثل "أقل" أو "أكثر" أو "منخفض" أو "متزايد". فالمنهج الكمي الإحصائي - خاصة في حالة توفر معطياته - يسفر عن نتائج دقيقة تسمح بالانتقال من السؤال المنهجي "ماذا؟" إلى سؤال أرقى منه منهجيا وهو "لماذا؟". وفي هذا السياق نسجل أهمية الإحصائيات الديموغرافية التي تلقي الضوء على طرق عيش الناس وتصوراتهم لذواتهم ولأجسادهم وحياتهم العائلية وموقفهم من الحياة[40]، مما يشكل مدخلا لفهم التاريخ النفسي للفئات المهمشة. وإن كنا نسجل - دون الوصول إلى حد التشاؤم - صعوبة تطبيق "التاريخ الجداولي" بالنسبة للتاريخ العربي الإسلامي في العصر الوسيط. فإذا كان تاريخ الغرب الأوروبي والتاريخ الأمريكي قد حظيا بتطبيق المنهج الكمي على يد مبدعه (Pierre Chaunu)، فإن التاريخ "الرقمي" بالنسبة للتاريخ العربي تعتريه المحدودية والقلة في ظل المعطيات النصية المتوفرة، لكن حسن استخدام القليل المتوفر قد يؤدي نسبيا إلى نتائج جديدة تفتح آفاقا جديدة لتاريخ المهمشين. حسبنا ما أكده تطبيق هذا

---

40. Ph. Ariès. L'histoire des populations françaises et de leurs attitudes devant la vie depuis le XVIIIe siècle. p. 15.

المنهج في النصوص البيوغرافية من نتائج مكنت من تحويل هذه المعطيات إلى ما يعرف بالمجموعات المنسجمة التي تتأسس بناءا على تحويل المعطيات التاريخية إلى مجموعات منتظمة ومنسجمة تشكل مبيانات تشترك فيها نفس الخصائص للمترجم لهم، وتمكن المتلقي من القراءة والفهم[41].

ج. المنهج السيميائي:

رغم أن الدراسات اللسانية كانت سباقة إلى تبني المنهج السيميائي مع كل من "غريماس" و"رولان بارث" و"تشومسكي"، فقد بدأ توظيف المنهج السيميائي أيضا في الدراسات التاريخية، وهو منهج يعتمد على قراءة الشارات والعلامات وإدراك أبعادها الدلالية والرمزية في كشف النقاب عن الفئات الاجتماعية المهمشة، خاصة في الروايات المناقبية ونصوص الكرامات الصوفية وتعبير الأحلام والحكايات والأحاجي[42]، ففك شفرة هذه الدلالات تميط اللثام عن جملة من التعبيرات عن المشاعر الجماعية، وتفصح عن الذاكرة الشعبية من خلال إدراك معاني تلك الدلالات عبر قواعد هذا المنهج.

د. المنهج الأنتروبولوجي:

في نفس المنحى، أفضى اهتمام المؤرخ بالعادات والتقاليد التي تميز بعض الجماعات والشعوب إلى التحول نحو المنهج الأنتروبولوجي الذي يعوّل على تعميق البحث في العادات الفيزيولوجية والغذائية والعاطفية والذهنية التي يفصح المجتمع من خلالها على هويته وكينونته. وقد تمطط مفهوم المنهج الأنتروبولوجي حيث ضم إليه - بتأثير من المدارس الأمريكية - مجال

---

41. ينظر العمل الرائد للمؤرخ Dominique Uvroy, *Le monde des Oulémas andalous au XIe s. siècle*, Genève, 1978. وانظر أيضا: منيرة بنت عبد الرحمن الشرقي، علماء الأندلس في القرنين الرابع والخامس الهجريين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2002.

42. أنظر تطبيقات هذا المنهج في كتابنا: **المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين: المجتمع - الذهنيات - الأولياء**، دار الطليعة، بيروت، 1993، ص 142 وما بعدها.

الإثنولوجيا[43]، ولذلك أصبح استثمار "النصوص الإثنية"، على حد تعبير "لوغوف"، تحتل مكانة خاصة عند مؤرخ الجماعات الهامشية. وصار الفولكلور يشكل مادة دسمة للوقوف على عاداتها وطبائعها، علما بأن هذا المنهج يعد أداة هامة في دراسة السلوك الجنسي.

هـ. المنهج البنيوي:

إن دراسة البنى والنظم الاجتماعية عبر الأمد الطويل تعد من أهم مكتسبات المدارس التاريخية الجديدة[44]، لكنها تعتبر في الوقت ذاته مطلبا لا غنى عنه بالنسبة للتاريخ الهامشي، لذلك جعلها "بروديل" ضمن ثلاثيته المؤسسة لكتاباته التاريخية وهي البنى والظرفيات والأحداث. فالمنهج البنيوي هو منهج كلي يشمل معالجة تاريخ "كافة الناس" وضمنهم الفئات المهمشة، ولا يقصي أحدا بما في ذلك النخبة صاحبة السلطة[45]، ويجعل من "الحدث "مادة هامة إذا ما تم تناوله في ارتباط مع بنيته، وهو ما يمكن من قراءة التاريخ قراءة بنيوية متكاملة.

و. تحقيب زمني للمهمشين:

إن التأريخ للمهمشين يستلزم أيضا تغيير مفهوم الزمن التقليدي الذي هو "الزمن التاريخي" المتجانس والمتصاعد، إلى "الزمن الاجتماعي" كما سبق الذكر. إذ ليس هناك زمن واحد دياكروني، وإنما أزمنة متعددة لمجتمع تاريخي. وبكلمات أخرى، فإن الانتقال من التاريخ السلطاني إلى تاريخ "كل الناس" يستوجب تأسيس تسلسل زمني جديد يحدد تاريخ الظواهر بحسب مدة فعاليتها وقوتها في التأثير، وليس بزمن حدوثها، فتصبح أمام المؤرخ تحقيبات جديدة من قبيل ظاهرة الاعتقاد في التطهر من الذنوب في الدنيا قبل الآخرة في

---

43. بورغيير، **الأنتروبولوجيا التاريخية**، ضمن كتاب **التاريخ الجديد**.... م.س، ص 254
44. فوفيل، "التاريخ والأمد الطويل"... م.س، ص 154.
45. بوميان، **تاريخ البنى**....م. س، ص 220.

المجتمعات الأوروبية المسيحية في نهاية القرن 12م، والتي اختفت نهائيا مع مجمع الفاتيكان الثاني[46].

أما بالنسبة لتاريخ المغرب الوسيط فيمكن أيضا إعادة النظر في الزمن التاريخي المبني على عصور الدول أو الخلفاء والأمراء إلى زمن الإيمان بالولاية والصلاح، والزمن القبلي، والزمن الفقهي، وزمن الزوايا، وزمن الشريفية (chérifisme)، وزمن استعمال الأدوات الإنتاجية التقليدية، وزمن استخدام النقل المعتمد على الحيوان، والزمن الراهن، فكلها مؤشرات تحتاج إلى نقاش وتوسيع نظر، ولكنها بالكاد تجعل مؤرخ الجماعات الهامشية يسير في الاتجاه الصحيح لفهم وإدراك ذهنية معقدة تراوحت ما بين هذه الأزمان المتداخلة.

وفيما يخص التاريخ الراهن: ألا يمكن اعتبار زمن الانفجار المعلوماتي الذي تحررت فيه طريقة حصول الفرد على المعلومات من سلطة الرقابة، وأصبحت تتم بإمكانيات ذاتية، وعبر رقعة كونية واسعة وبسرعة خيالية زمنا جديدا بدأت تتشكل ملامحه وتتأسس معه ذهنية جديدة وفق مواصفات جديدة؟

مهما كان الأمر، فإن زمن الأمد الطويل الذي هو المظهر الطبيعي للتاريخ الثابت، شكل تحديا للتحقيب الرسمي، ودفع بالتاريخ الاجتماعي نحو تاريخ الذهنيات، خاصة أن ذهنيات النخب تبدع وتتغير، بينما تتسم ذهنيات العامة أو ما يسميه "فيليب أرياس" بـ "اللاوعي الجمعي "بالسكونية والثبات[47]، مما يؤكد مصداقية الزمن الطويل كمعيار وأداة منهجية ملائمة لزمن المهمشين.

من ناحية أخرى، يفترض التأريخ للمهمشين تداخل الأزمنة التاريخية، وهو ما تحدث عنه "ألتوسير" في صيغة عبّر عنها بـ" تعانق الأزمنة "التي يمتزج فيها الزمن الاقتصادي وزمن التاريخ الاجتماعي وزمن تاريخ البنى الذهنية، وهي أزمنة متفاوتة السرعة[48]، بما يفضي إلى تحقيبات زمنية هامشية بالغة التعقيد.

---

46. جاك لوكوف، **التاريخ الجديد**..... م. س، ص 130.

47. فوفيل، "التاريخ والأمد الطويل"... م.س، ص 157، 159.

48. نفسه، ص. 169.

ز. تاريخ هامشي يستقطب مختلف التخصصات:

نتج عن الاهتمام بدراسة الفئات المهمشة وتوظيف المناهج السالفة الذكر، اهتمام المؤرخ بحقول معرفية تتقاطع فيما بينها لدراسة هذا الموضوع. فإلى جانب علوم الإحصاء التي يستلزمها المنهج الإحصائي، يجري الاهتمام أيضا بالديموغرافية التاريخية التي تكشف عن نسبة النمو الديموغرافي وعلاقته بالكوارث الطبيعية والحروب. ويعزى الفضل لـ (Pierre Goubert)، في فتح هذا الورش الجديد من خلال اهتمامه بالسجلات الكنسية التي تشمل تواريخ الولادة والوفيات للأفراد والعائلات في منطقة جهوية بفرنسا[49]. كما أصبح علم الإثنوغرافيا والظواهر السوسيولوجية المرتبطة بالإنسان تشكل نقاط جذب واسعة، حتى إن "بول فاين" سمى هذا العلم الجديد بالتاريخ السوسيولوجي، بينما فضل "لوغوف" تسميته بالأنتروبولوجيا التاريخية. وغير خاف ما تمثله العلوم الفقهية بالنسبة لتاريخ الإسلام، إلى جانب علوم اللسانيات التي تكشف مظاهر التواصل بين الفئات المهمشة، و الكارتوغرافيا المتضمنة للخرائط التفسيرية والتي تكشف عن أماكن تجمعات الأقليات الهامشية كالأقليات الدينية والإثنية، ومواقع الرباطات والزوايا، وأماكن الأسواق وتجمعات الحرفيين والمزارع التي ينتشر فيها الرقيق وغيرها.

ونتيجة لتقاطع مختلف العلوم مع مناهج التأريخ للفئات المهمشة السالفة الذكر، ظهرت مصطلحات جديدة في الكتابة التاريخية مستعارة من علم الاجتماع وعلم الاقتصاد والفلسفة والجغرافيا وغيرها من العلوم الأخرى. ومن هذه المصطلحات الجديدة على سبيل المثال:

- الإيقاع، المد والجزر، الأمد الطويل، الزمن الاجتماعي. (جاك لوكوف وفوفيل).
- التسمع - التصنت لتموجات المجتمع - أسلوب الشبكة (Braudel).
- المركز والهامش - التاريخ الثابت (Le Roy Ladurie).

49. انظر كتابه: *Beauvais et le Beauvaisis de 1600 à 1730: contribution à l'histoire sociale de la France du XVIIe siècle. Démographie et sociétés*, Paris, 1960.

- تقنيات الجسد (Marcel Mauss).
- الدورات المنتظمة - دورات التوسع - دورات التراجع (Simiand).
- الأنظمة العقلية (فوكو).

ح. من الوثيقة المخزنية إلى الوثيقة المجازية والكتب "االصفراء":

في سياق الاهتمام بالأدوات المنهجية لكتابة تاريخ الجماعات المهمشة، حدث تطور واضح في مفهومي الوثيقة والمصدر أسفر عن "ثورة وثائقية "شكلت شبه قطيعة مع التصور السائد في التاريخ الوضعي الذي ساد خلال القرن 19 م[50]، إذ تحررت الوثيقة من هيمنة مراقبة المؤسسة المخزنية. فلم تعد مجرد خطب أو مراسلات أو ظهائر سلطانية تحمل تواقيع وختم السلطة المركزية أو السلطات المحلية، بل كل ما له صلة بالفعل الإنساني وتمظهرات عقليته. كما تحرر النص من إكراهات المصادر التقليدية المشدودة إلى مراكز النفوذ.

لذلك فإن من حسن طالع المتخصصين في تاريخ الفئات المهمشة، أن وجدوا في مدرسة الحوليات ومهندسي التاريخ الجديد من أمثال بروديل وجاك لوكوف، ولوفيفر مرجعية هامة في هذا الاتجاه، خاصة أن هؤلاء أسسوا مفهوما جديدا للوثيقة، يتجاوز المفهوم التقليدي، فلم تعد المعاهدات الرسمية والدبلوماسية والرسائل الديوانية تشكل حجر الزاوية بالنسبة لهم، وهي وثائق لم تعن أصلا بالتاريخ الهامشي، بل وسعوا مفهوم الوثائق ليصبح كل ما له علاقة بالإنسان المهمش، فالأسطورة والحلم والكرامات الصوفية والأهازيج الغنائية والفولكلور وشارات حركات الرقص وغيرها من الوثائق المجازية، فضلا عن الوثائق الأخرى "الواقعية" مثل شواهد القبور ولوائح دفن الموتى وقوائم النذور ونصوص الوصايا وعقود الأكرية وسجلات العقارات والموانئ، وجرد الأثاث الديني للمسجد والكنائس[51]، أصبحت تشكل وثائق "أساسية"

---

50. جاك لوكوف، **التاريخ الجديد**... م. س، ص. 83.
51. فوفيل، "التاريخ والأمد الطويل"... م. س، ص. 165-166.

في مدرستهم. وللدلالة على ذلك أعطي هذا المثال من تاريخ المغرب مستوحى من دلالات حركة الرقص: ففي المنطقة الشرقية من المغرب تسود الرقصة المعروفة في الفولكلور الوجدي برقصة العلاوي، وتتضمن هز الأكتاف مع إيقاعات منتظمة يصحبها حمل السلاح. ودلالة هز الأكتاف مع إطلاق رصاصة من البندقية المحمولة تعبر عن الرفض والإباء لكل دخيل أجنبي، كما تعبر عن الرجولة. والإيقاعات المنتظمة تعبر عن حب النظام وروح الجماعة، لذلك فإن كل من أخطأ في مسايرة هذا الإيقاع في الرقص يتعرض لسخط وغضب زملائه المشاركين في حلقة الرقص... إنه مثال من عشرات الأمثلة الموجودة في الفولكلور المغربي.

وفي مجال المصادر، يستلزم التأريخ للفئات المهمشة الرجوع إلى ما يعرف ب "الكتب الصفراء" من قبيل مصنفات السحر والتعاويذ و"الجداول الفقهية والحروف" ورسوم الأسود والأفاعي، وتوظيف الأمثال الشعبية والأحاجي والحكايات الخرافية، وكتب الطبيخ وكتب الحسبة والمؤلفات الفقهية ومشاهدات الرحالة، وكل ما له صلة بالمعيش اليومي في حياة الناس أو يمس حياة الجماعات المجهولة[52]، فكل هذه المصادر أصبحت توفر نصوصا ذات قيمة كبرى لمؤرخ التاريخ الهامشي، وتندرج فيما أصبح يعرف بـ "ما بعد النص".

ومن الأمثلة التي يمكن أن نسوقها ضمن خانة "ما بعد النص" فصائل الدم وأنواعها حيث يمكن من خلالها التعرف على مجموعة بشرية بسلسلة الجينات المتكررة عندها، وهو ما يسمح بتحديد المكونات الجينية لمجموعات بشرية متنوعة الأصول، وإمكانية تتبع تطوراتها وهجراتها وترتيب المجموعات البشرية حسب تقاربها الجيني[53].

---

52. للمزيد من التفاصيل: انظر مقالنا: تاريخ العوام في مغرب العصر الوسيط بين فقر الوثائق وإمكانيات التجاوز: ضمن كتابنا: تاريخ الغرب الإسلامي: **قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، بيروت، 1994، دار الطليعة، ص. 30 وما بعدها.

53. بوميان، "تاريخ البنى"... م.س، ص. 227.

والجدير بالملاحظة أن النص المستخرج من هذه الوثائق المجازية والعفوية و"الكتب الصفراء" يكتسي خصائص لا تتوفر في النص الرسمي السلطوي:

فهو نص غير محابي، بل هو مناهض في الغالب الأعم للسلطة ونظامها المعرفي.

يكسر سلطوية البطل واحتكاره للحدث.

تزدحم فيه شخصيات مختلفة ومتنوعة المشارب والثقافات.

مكتوب بلغة بسيطة قريبة من المعيوش اليومي.

تسود فيه غالبا الرواية الشفهية والاعتماد على الذاكرة، وليس الثقافة الكتابية، وبالتالي فهو مخزن مشاعر وليس مرصد معرفة.

وفي مجال التاريخ الراهن، يشكل السرد الروائي متنا سرديا أساسيا لفهم الفئات المهمشة، ونسوق في هذا الصدد مثال رواية "الخبز الحافي" لمحمد شكري، وهي نص يمثل الجنس الأدبي المعروف بأدب بيكاريسكا الذي يرصد حياة المهمشين من الفقراء والمتسولين والمتشردين والحمقى. كما يمكن أن نسوق أيضا أغاني ناس الغيوان و"تهريج" أصحاب الحلقات من الحكواتيين والمشعوذين الذين يتجمعون في الساحات العمومية ويتحدثون أحيانا بلغة "ساقطة" تعبر عن ثقافة المتسكعين والمنبوذين... إنها وثائق يجب تسجيلها لأنها ستكون مادة دسمة لمؤرخ الهامش والمهمش...

جماع القول إن تاريخ المهمشين ستظل إشكالية مركزية، وفي حاجة إلى تضافر جهود الباحثين من أجل الإجابة عن أسئلة تمس حقلا لم يسبر غوره بشكل عميق، وذلك حتى لا يبقى تاريخنا معاقا، وحتى يستوي على قدميه... وتلك مسؤولية كل مؤرخ، خاصة مؤرخو الأجيال الصاعدة.